المقـدمــة

خلق الله عباده ليسعدوا بعبادته الجامعة لكمال محبته مع تمام الخضوع والانقياد لأوامره ، فالأصل بالعبادة إفراده تعالى بالمحبة ، فلا يحب سواه ولا معه ، ولكن لأجله وفيه ، كما يحب الأنبياء والرسل و الملائكة ؛ لأنهم سبب نجاته من المهالك إذا تبعهم و سار على نهجهم ، وبذا يقيم الخلافة في الأرض ويعمرها .

فحين يتعرف العبد على نِعَم الخالق التي حباه بها ، و يستفيد منها بشكل مباشر أو غير مباشر في تأمين وجوده واستمرار وجوده وسلامة وجوده ، مع استخدامه لنواميس الكون «الطبيعة» ، عندها يشعر بتكريم الخالق له إذا عرف أن جميعها مسخرة له ، وأنها هي وسيلة العبد للتعرف على الخالق العظيم والوصول إلى محبته ، والسعادة بهذه المحبة .

ولشكر المنعم على هذه النعم التي يرى المرء نفسه مغموراً بها في جميع أحواله ، يتطلع المرء للتعبير عن مشاعره ، والسؤال عن الوسيلة المثلى للتعبير بها ، وإظهار مكنون نفسه من الشكر والرضى ، فلا يجد أمامه إلاّ اتباع رسل الله الذين اختارهم الخالق ؛ ليرشدوا عباده إلى السبيل الأمثل للسعادة في الدنيا ونيل رضا الله في الآخرة .

فالأنبياء والمرسلون هم المرشدون لاتباع الوسيلة الصحيحة في التعرف على ذات الله ، واستخدام نعم الله لِمَا خُصصت له لسعادة العباد ،ليصلوا لمحبة الخالق المنعم .

فهم يعرفون بذات الله «العليم» ، بوجَوده وقدمه وبقائه ، وصفاته وأسمائه

الحسنى كونه: حيّاً ، عالماً ، سميعاً ، بصيراً ، منزهاً عن الحدوث. . . .

ويعرّفون بأفعاله ومغزاها وحكمتها وأنها لمصلحة الخلق في جميع أطوار حياتهم ؛ ليصل العبد لعبودية الخالق ، فلا يرى نفسه متعالياً عن باقي المخلوقات الذين خلقوا مثله ، ولا يتعدى ، ولكن يرى نفسه ضمن دائرة العبوديّة متعاوناً مع الجميع ، متساوياً معهم ، فينطلق يعمر الأرض ويقيم خلافة الله عليها.

فالأنبياء والرسل هم الّذين يرشدون العباد لسلوك طريق الحق و السعادة التي خلقوا لأجلها ، وهم القدوة الحسنة عندما يظهرون ببيانهم الصحيح انحراف المتعنتين وضلالهم محذّرين ومنذرين، ومبشرين للمطيعين السالكين.

فمن عارض الأنبياء ولم يعرف مقامهم: هو الّذي كفر بوجود الخالق الواحد صاحب الفضل و المنّة ، وهو المفسد في الأرض الّذي لا يريد أن يخضع لنواميس الكون المسخر له ، بل يريد أن يعمل بأنانيّته ، يتحرك دون ضابط مدفوعاً بأنانيّة متعالية ، تستخدم هواها وقدراتها للسيطرة على الآخرين ، وتتحكم بما تقدر عليه من قوى بلا وازع ولا حقّ.

أما أتباع الرسل فهم الّذين عرفوا خالقهم وحبه لعباده ، وعرفوا موقعهم بين العباد ، فكان سلوكهم إيثاراً متعاوناً مع الجميع في خدمة الخلق الّذين أحبّهم ربّ العباد ، وتمثلوا أسماء الله الحسنى بسلوكهم ، فحققوا الخلافة على الأرض وعمروا الأرض بالفضيلة والمحبّة وخدمة المخلوقين.

وهكذا فالكفر والإلحاد بأسماء الله: سلوك المستعلي بأنانيّة على العباد ، ويمثّل ذلك قول فرعون وعمله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] يخضعون له ويطيعونه.

وهكذا فإنّ الامتثال لتعليمات خالق الكون والإنسان الّذي قد سخّر لعبده كلّ ما في هذا الكون ليسعده بمحبّته:

* تسخير تكريم: بالاستفادة من هذه النعم ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

* تسخير تعريف: تعريف بذاته وصفاته و أفعاله الكاملة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ، آيات دالّة على علمه وعظمته وفضله وحكمته ورحمته و... جميع أسمائه الحسنى ، هذا الامتثال وهذه السعادة لا يكونان إلاّ باتباع الرسل والأنبياء الّذين هم:

١ ـ مختارون من الله العظيم خالق الكون والإنسان ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢] ، ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٧].

٢ ـ إنهم القدوة الحسنة للوصول إلى السعادة والمحبة والعبودية لله ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] ، فهم المثل الأعلى في اتباع منهج ربّ العالمين ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

٣ ـ لهم قوة تأثير في الآخرين ، بالحجّة و المحاكمة السليمة والبيان ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام: ٨٣] ، ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

٤ ـ إنهم صفوة الله من خلقه بما امتازوا من عصمة ورجولة ، وتحمّل الأذى والصبر والقيام بالأعمال العظيمة ـ يتحدّون أقوامهم وحدهم ـ ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٥].

ـ فتوحيد الخالق وعبادته هي دعوة الرسل جميعاً ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومطلوب من الناس اتّباعهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فمن آمن بالله الواحد خالق الكون و الإنسان لا يميّز بين عباده إلاّ بأعمالهم الصالحة «لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى» ولا لأبيض على أسود ، ولا لقوم على غيرهم ؛ لأنّ الله خالق الجميع و يحبّ إسعاد الجميع فأكرم

الجميع ، قال عليه السلام : «الخلق كلّهم عيال الله وأحبّهم لله أنفعهم لعياله» .

أمّا من وضع قواعد يميّز فيها بين الأفراد أو الأقوام بسبب الجنس أو اللون أو غير ذلك ، فقد افترى على الله الكذب وكفر بعدله و رحمته ، و كذّب بدعوة رسله وأنبيائه ، فلا غرو أن يكذّب الأنبياء و يقوم بإيذائهم ، وينسب إليهم مالا يليق بهم من الأعمال المشينة الّتي لا يرضاها الله لعباده من مخالفات كالزني والقتل والإبادة الجماعيّة والكذب والاحتيال! وهذا يستحقّ عقاب الله ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [صّ: ١٤] فليس بين الله وعباده قرابة .

إنّ من يدّعي أنّ له مكانة عند الله تميّزه عن غيره من خلق الله فقد أنكر أسماء الله الحسنى «العادل ،الرحيم . . .» ، وأعطى نفسه هواها ، واتّبع شهواته ، وعاث في الأرض فساداً و﴿ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] ، فالله لم يعط عهداً للظالم ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] ، فقد ينجح الكاذب في ترويج أكذوباته ، و كذلك المحتال فقد يخدع الآخرين لحين ، لكن ليس ببعيد ، فالله الحقّ يظهر الحقّ دوماً على لسان رسله ؛ ليصحو الغافل ويَعِيَ المخدوع ، فلمّا قال الله للملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . . .﴾ [البقرة: ٣٠] هذا الإنسان الصالح المستقيم المحبّ لله ولأسمائه ، والمرتبط برباط الرسالة السماويّة ، أجابت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] إشارة إلى هذا النوع من البشر ، الفاسدين ، المستخدمين للمكر و الخداع ، و الذين قال عنهم إبليس : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩] .

فالله واحد ، ودعوة رسله واحدة ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ . . .﴾ ، ودينه واحد وهو الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ، ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] ، وهكذا جميع الأنبياء والرسل دعوتهم واحدة لقيم واحدة وطريق واحد ، هذه دعوة الأنبياء ، ودينهم دين الإسلام يقرر عصمة الأنبياء والرسل ، وسموّ أخلاقهم والتزامهم بشريعة ربّهم ، فهم صفوة البشريّة وقدوتهم ، فمن يفتري عليهم

وينسب إليهم القبائح ، يقع في جهل مكانتهم عند الله ، وينسب إلى الله الجهل وهو الّذي اختارهم سفراءه لخلقه ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١] ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ ﴾ [الزمر: ٦٧].